

اجتهادات قضية فلسطين بلغة الريشة

ابتكر البشر منذ وقتٍ مبكر في تاريخهم لغاتٍ للتواصل بينهم⁰ وتطورت اللغة كوسيلة تواصل عبر الزمن. وهي ليست مقصورةً على البشر. لكل من الكائنات الحية وسيلته في التواصل. فالأصل فيها أنها تعبر عن معنى. وتتعدد سبل هذا التعبير لدى البشر، ومن بينها الرسم والتشكيل. لغة الريشة قد تكون أكثر تعبيرًا، خاصة حين يملك الفنان أدواته ويبلغ مستوى رفيعًا في استخدامها، مثل الفنان العروبي الكبير محمد علي الخطيب الذي حلت أمس الذكرى الأولى لرحيله. لم يسعدني الحظ بمعرفة الخطيب إلا في السنوات العشر الأخيرة في حياته. عرفته خلالها عن قرب، وأدركت مدى عمق إيمانه بقضايا أمته وفي مقدمتها قضية فلسطين. زُرت مرسومه الثرى مرات، وتأملت الكثير من لوحاته، ووجدت في كل منها معنى واضحًا وتشكيلًا جميلًا في الوقت نفسه. لاحظت أنه تأثر في بداياته بنكبة 1948. لوحاته التي رسم فيها اللاجئين

تكاد تنطق وتروى قصصًا يشهد كل منها على إحدى جرائم استعمار استيطاني إحلالي هو الأكثر همجية منذ غزو أوروبيين مغامرين ما كان يُعرف في القرن السادس عشر الأرض الجديدة حيث تقع الأمريكتان الآن. لوحاتٌ تنطوي، فضلاً عن رمزياتها السياسية، على قيمة فنية عالية من حيث تقنيات الرسم والألوان والتشكيل. وقل مثل ذلك عن لوحاته التي واكبت التطورات المأساوية في هذه القضية، خاصةً التهجير الثاني 1967، والاحتياح الصهيوني لبلده لبنان 1982. ولو كان القدر أمهله لوجدنا الآن لوحاتٍ معبرةً عن جرائم إبادة غزة، خاصةً أن سرعة الإنجاز كانت إحدى قدراته. يشعر من يشاهد لوحات مثل النكبة والنزوح وغيرهما بهول عذابات المهجرين من وطنهم وبيوتهم. وتُعد لوحة العبور عن عبور المهجرين جسر نهر الأردن عام 1967 تحفةً فنيةً اشتهرت على المستوى الدولي. أما لوحاته عن مرحلة اجتياح لبنان فقد عبر بعضها عن تجربته المباشرة، وهو الذي كان مقيمًا في صيدا بالجنوب. ويمكن لمن يشاهدها بتمعن أن يلاحظ تعبيرها عن التطور في بطولات مقاومة

الاجتياح. وليس هذا إلا نذرًا يسيرًا من إبداع ريشة فنان
كبير نفتقده اليوم. فسلامٌ لروحه.